ABES13

**أحاديث الأذكار والأدعية 18 - شروط الدعاء وآدابه**

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذا حديثٌ عن شروط الدعاء وآدابه؛ وهو بابٌ مهم ينبغي على الداعي أن يعنى به ليكون ذلك موجبًا لقبول دعائه وعدم رد سؤاله؛ ذلك أن الدعاء له شروطٌ وآدابٌ تثمر قبول الدعاء وعدم رده، وأيضًا ثمة موانع تمنع من إجابة الدعاء، فعلى العبد أن يُعنى بهذا المقام عناية عظيمة، بأن يعرف موجبات قبول الدعاء فيحققها لتكون سببًا لقبول دعائه، وأن يعرف أيضًا موانع قبول الدعاء ليتقيها ويحذرها، لأنها موجبةٌ لرد دعائه، **وفي هذا الباب آياتٌ وأحاديث كثيرة**.

* قال الله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[غافر:65].

هذا أهم شرط وأعظم ضابط في هذا الباب؛ {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: أخلصوا الدعاء لله، فلا تدعو إلا الله، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي  **:** ((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)).

ودعاء غير الله كفرٌ وضلال، قال الله تعالى: { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}[الأحقاف:5]، وقال تعالى:{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا}[الإسراء:56] ، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}[سبأ:22] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة. فهذا أعظم ضابط؛ أن يكون الدعاء خالصًا لله.

وإذا كان العبد مخلصًا في عبادته مفردًا ربه بها موحدًا، فهذا أعظم النعم وأكبر المنن، ولهذا أُتبع الإخلاص في الآية بالحمد {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[غافر:65] ، فهذه أكبر نعمة وأعظم منة؛ أن يكون العبد من أهل الإخلاص والتوحيد؛ ولهذا خُتمت بحمده على هذه النعمة العظيمة.

* **وقال تعالى:** {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**[الأعراف:55-56]** .

جمعت هاتان الآيتانجملة من الآداب العظيمة للدعاء، ولعلي أشير إليها باختصار.

**الأول**: قوله {ادْعُوا رَبَّكُمْ} أي: وحدوه دون سواه؛ فالدعاء عبادة لا يلتجئ فيها إلا إلى رب العالمين، ولا يستحقها أحدٌ سواه.

**الثاني:** قوله {تَضَرُّعًا}؛ والتضرع: هو الإلحاح ودوام السؤال والطلب؛ أي: ألح على الله بالدعاء، وأكثر من الدعاء والسؤال، فالله يحب منك أن تُلح عليه، ويحب إلحاح الملحين وتضرع المتضرعين.

**الثالث:** {وَخُفْيَةً}أي: بينك وبين الله؛ فلا ترفع صوتك به، بل تدعوه دعاءً خفيًا بصوتٍ خافت. وليس المراد بـ«خفية» ألا تحرك لسانك، بل حرك لسانك بكلمات الدعاء ولكن بصوتٍ خافت، قال الله عن زكريا {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}[مريم:3] ؛ناداه نداء خفيًا ليكون أكمل وأتم في إخلاصه لربه .

**الرابع:** قوله { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}؛ والاعتداء في الدعاء بابه واسع، ويمكن جمع ذلك في كل ما خالف السُّنَّة، ففي الآية التحذير من الاعتداء في الدعاء بمخالفة هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((سَيَكُونُ بَعْدِي قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهُورِ)) .

**الخامس**: قوله {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} أي: بعد أن أصلحها الله بالتوحيد والسُّنَّة والهدي القويم الذي جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فلا تفسدوها بالشرك، ولا تفسدوها بالبدع والمعاصي، بل اعتنوا بهذا الصلاح تحقيقًا له ومداومةً عليه وحفظًا له. وقد وسَّط سبحانه النهي عن الإفساد في أثناء الأمر بالدعاء للإيذان بأن من لا يعرف نفسه بالحاجة والافتقار إلى رحمة ربه الغني القدير وفضله وإحسانه، ولا يدعوه تضرعًا وخُفية ولا خوفًا من عقابه وطمعا في غفرانه، فإنه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح .

**السادس والسابع**: قوله { وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي: اجمعوا في دعاءكم بين الخوف والطمع، الرجاء والخوف؛ وهذان ركنان لا بد منهما في كل عبادة، بأن تدعو الله وتعبده وتقوم بكل طاعةٍ وأنت ترجو رحمة الله وتخاف عذابه.

ثم ختمها بقوله: { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}؛ وهذا فيه إشارة إلى تحقيق مقام الإحسان في العبادة، وهو كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

قال الشيخ ابن سعدي :: «وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا، لا غافلا ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء؛ فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى».

وقوله سبحانه: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} تضمَّن كما تقدم أدبًا عظيما من آداب الدعاءِ، ألا وهو إخفاؤُه وإسرارُه وعدمُ الجهرِ به، كما قال الله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ}[الأعراف:205] ، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ قال: ((رفع الناسُ أصواتَهم بالدعاءِ، فقال رسول الله : أيُّها الناس، اربَعُوا على أنفسِكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنَّ الذي تدعونَه سميعٌ قريبٌ)).

قال الحسن البصريُّ:: «لقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرضِ من عملٍ يقدرون أن يعملوه في السرِّ فيكون علانيةً أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلاَّ همساً بينهم وبين ربِّهم ، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً}، وذلك أنَّ اللهَ ذكَرَ عبداً صالحاً رضيَ فِعلَه فقال: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}».

وقال ابن جُريج:: «يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة»؛ فإخفاء الدعاء وعدمُ الجهرِ به أدبٌ لا بدَّ منه، ويترتَّبُ عليه من الفوائد والفضائل والمنافعِ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

**وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية : لإخفاء الدعاء فوائدَ عديدةً يتبيَّن من خلالها أهميَّةُ إخفاء الدعاء وكثرةُ العوائدِ والفضائل المترتِّبةِ على إخفائِه.**

**أحدها**: أنَّه أعظمُ إيماناً؛ لأنَّ صاحبَه يعلم أنَّ الله يسمع الدعاءَ الخفيَّ.

**وثانيها**: أنَّه أعظمُ في الأدب والتعظيمِ، فإذا كان يسمع الدعاءَ الخفيَّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلاَّ خفض الصوت به.

**ثالثها**: أنَّه أبلغُ في التضرُّعِ والخشوع الذي هو روح الدعاء ولُبُّه ومقصودُه؛ فإنَّ الخاشعَ الذليلَ إنَّما يسألُ مسألةَ مسكين ذليلٍ قد انكسر قلبُه وذلَّت جوارحُه وخشع صوتُه.

**رابعها**: أنَّه أبلغُ في الإخلاص.

**خامسُها**: أنَّه أبلغُ في جَمعيَّةِ القلبِ على الذِّلَّةِ في الدعاء، فإنَّ رفعَ الصوتِ يفرِّقه، فكلما خفض صوتَه كان أبلغَ في تجريدِ همَّته وقصدِه للمدعو سبحانه.

**سادسها**: أنَّه دالٌّ على قربِ صاحبِه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبدِه زكريا بقوله: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}، فلمَّا استحضر القلبُ قُرْبَ الله وأنَّه أقربُ إليه من كلِّ قريبٍ أخفى دعاءَه ما أمكنه.

**سابعُها**: أنَّه أدْعى إلى دوامِ الطلبِ والسؤال؛ فإنَّ اللسانَ لا يمَلُّ، والجوارحَ لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوتَه، فإنَّه قد يملُّ اللسان وتضعفُ قواه، وهذا نظير من يقرأُ ويكرِّر، فإذا رفع صوتَه فإنَّه لا يطول له، بخلاف مَن خفض صوتَه.

**ثامنها**: أنَّ إخفاءَ الدعاء أبعدُ له من القواطعِ والمشوِّشات، فإنَّ الداعيَ إذا أخفى دعاءَه لَم يدرِ به أحدٌ، فلا يحصلُ على هذا تشويشٌ ولا غيره، وإذا جهر به فرطت الأرواحُ البشريَّة ولابدَّ، ومانعته وعارضته، ولو لَم يكن إلاَّ أنَّ تعلقها به يُفزع عليه همتَه فيضعفُ أثرُ الدعاء، ومَن له تجربةٌ يعرف هذا، فإذا أسرَّ الدعاءَ أمِن هذه المفسدةَ.

**تاسعُها**: أنَّ أعظمَ النعمةِ الإقبالُ والتعبُّد، ولكلِّ نعمةٍ حاسد على قَدرِها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمةَ أعظمُ من هذه النعمةِ، فإنَّ أنفُسَ الحاسدين متعلِّقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمُ من إخفاءِ نعمتِه عن الحاسدِ، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}[يوسف:5] الآية.

فهذه جملةٌ من الفوائدِ العظيمةِ والثمارِ الكريمةِ التي تترتَّبُ على إخفاءِ الذِّكرِ وعدمِ الجهرِ به، ومِن خلالها يظهرُ للمسلم أهميَّةُ إخفاءِ الدعاء وإسرارِه، بخلاف الجهرِ به وإعلانِه، فإنَّه يترتَّبُ عليه ضِدُّ ذلك.

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب .

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .